ساعة الرؤى والكوابيس . لكن انتبهت فتحت فجأة عينيها وصرخت نحوه بلهجة غريبة : « كايوس مُدَّ اليَّ يدك . » فنهض فوراً وكأنَّ دمه قد جمد بعروقه . فقالت له وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما : « ألا ترى هذا الضياء المتقرّب مني ؟ » فاجابها : « اتوسل اليك ان تُغمضي عينيك ولا تنظري شيئاً ! » ثم تفرّس في وجهها فلم يرَ ادنى علامة رُعب بل كان منوّراً بنور سماوي والشفتان منفرجتان قليلاً وعلى الخدّين دلائل فرح غير محدود . تمتمت امرأته : « الرؤيا تدنو اليَّ ! ها هي اراها جليّاً ! هذا هو يسوع الناصري يمدّ اليَّ يديه الباقي فيهما ثُقبا المسامير . ما اجمله ! ما ارحمه ! كايوس انه يمنحني الشفاء ! يمنحني الشفاء ويدعوني الى السماء ! »

بعد هذه الكلمات اسلمت روحها بجانب زوجها وقد شحب وجهه كلَّ الشحوب وقال بصوت خنقته الدموع : « انا ايضاً سأتبع مثلك ! يسوع المسيح نور وحده يستطيع ان يمنحني الحياة الابدية السعيدة ! » ثم سمع خطوات متدانية واذا صديقه بيلاطس راكضٌ يلهث ويمسح العرق من جبينه ويقول بلهجة التأثر الشديد : « في هذا الصباح قام يسوعُ من قبره وقد انتشر هذا الخبر في كل اورشليم ! »

بيروت

اخبارها وآثارها

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

القسم الثاني : ابحث الحادي عشر

بيروت في عهد الشهابيين الى موت الجزّار (١٧١١—١٨٠٦)

تتبّعنا اخبار بيروت حتى اوائل عهد الشهابيين الى موقعة عين دارة التي فيها تمّ

الفوز للامير حيدر الشهابي ودارت الدورة على الحزب اليمني بتغلب الحزب القيسي وسقوط بيت علم الدين الذين قُتل منهم خمسة امراء في عين دارة كانوا كالعتبة الكؤود في سبيل السلام لبنان وكشجاً في حلقه لم يُنتزع وتوطيداً لهذا السلام اقتسم الامير حيدر مقاطعات لبنان بين منافسيه القيسيين فولى الامراء اللمعيين على المتن والتلحوقيين على الغرب الاعلى والنكديين على الناعمة وآل القاضي على جزين واطلق على كل هؤلاء اسم المشايخ . وأخذل بانتصار القيسيين ولاة الدولة التركية الذين كانوا في جانب اليمنيين وعادوا الى مراكز ولايتهم في دمشق وصيداء وطرابلس

حكم الامير حيدر على الشوف وبيروت وسواحل لبنان وابتنى له قصراً في بيت الدين . وقد شكر الناس عدله وخافه اعداؤه لاسيما بعد انتصاره على مشايخ المتاولة سنة ١٧١٨ . وفي السنة ١٧٢٩ اعتزل عن الحكم منيباً عنه ابنه الامير ملحم الذي خلفه بعد وفاته سنة ١٧٣٠ وجرى على آثار ابيه بحسن تدبيره وبسأسه وشدة بطشه بن يخالفه فكان لا يعفو عن ذنب وهو الذي غلب والي دمشق اسعد باشا العظم وضم بعلبك الى ولايته . ولما رأى ما يثيره اللبنانيون من الفتن عدل الى سياسة تقسيم كلمتهم . وظهر وقتئذٍ الحزبان الشهيران اليزبكي كان زعيمه عبد السلام العماد ابن يزبك والجنبلاطي يرئسه الشيخ علي جنبلاط . وفي زمنه انقضّت صاعقة على قلعة بيروت فخربت جانباً منها فاصلحه الامير

وفي السنة ١٧٥٤ تنازل الامير ملحم عن ولاية البلاد لاخويه الاميرين احمد ومنصور وسكن بيروت الى سنة وفاته ١٧٥٩ . فحكم الاخوان مشتركين الى السنة ١٧٦٢ ثم وقع بينهما خلاف أدى الى حرب انتصر فيها الامير منصور فاستقل بالحكم الى السنة ١٧٧٠ . وفيه رأى ان الامير يوسف ابن اخيه ملحم كان قد شب وقويت شوكته وحاول وضع يده على ولاية والده فسبقه الامير منصور نجاة من صولته وتخلى له عن الحكم امام اعيان البلاد في الباروك وتوطن هو بيروت الى ان مات فيها حتف انفه سنة ١٧٧٤

حكم الامير يوسف ابن ملحم على لبنان وبيروت ثماني عشرة سنة قضاها بضروب المحن فحارب المتاولة في جبل عامل وانتصر عليهم بيد كاخيه الشيخ سعد الخوري . ثم اثار عليه الفتن اخواه بنيد احمد وفندي وخاله اسمعيل ففتك بهم

وممَّن قضى عليه محاربتُهُ ظاهرُ العُمَر وكان هذا شيخاً عربياً من قبيلة بني زيدان الساكنة في فلسطين وكان ابوهُ عمر عاملاً في اوَّل الامر للامير الشهابي بشير الاوَّل فخدمَهُ بمراقبة الشيعيين في صفد وبلاد بشارة واشتهر بنشاطه وشجاعته وشدَّة شكيمته وكان يُحسن المعاملة الى النصارى واستعان في خدمته بابراهيم الصبَّاغ . ولمَّا توفي الامير بشير سيِّدهُ استقلَّ بالامر ووسَّع نطاق حكمه ثمَّ قام ابنهُ ظاهر بعدهُ فساعدهُ الزمان فدخل عكَّا، وانقذها من ظلم الاتراك وبلَغ حدود ولايته الى يافا جنوباً وحينا شمالاً وهو يؤدي للدولة الضرائب المطلوبة فتغاضَ الطَّرْف عنهُ حتى جرى بينهُ وبين ولاتها نفور . وكان الامير علي بك في تلك الاثناء قد استفحل امرهُ في الصعيد فاراد ان يملك على سوريَّا اذ رأى ضعف الدولة التركيَّة وانشغالها بمحاربة الدولة المسكوبيَّة وحالفهُ الشيخ ظاهر العمر وعشيرتهُ فأمدَّهُ علي بك بجيش يرئسهُ مملوكهُ محمَّد بك ابو الذهب فخان هذا سيِّدهُ ورجع الى مصر . فقام علي بك بنفسه وقدم الشام وحارب مع الشيخ ظاهر الاتراك وكان يعضدهم الامير يوسف فانتصر عليهم المصريون في واقعتين سنة ١٧٧١ . ثم ارسل علي بك يطلب من الدولة الروسيَّة ان تساعدهُ على الدولة العثمانيَّة فتقدمت مراكبهم الى صيداء وعضدوا المصريين في انتصارهم على العثمانيين ثم ساروا الى بيروت فضربوها ولم يبتعدوا عنها الَّا بعد ان دفع الامير يوسف ٢٥،٠٠٠ ريال للاميرال سبنكوف . امَّا ظاهر العمر فانتهز تلك الفرصة ليبسط حكمهُ على معظم بلاد فلسطين . ثمَّ ساءت امورهُ بعد مدَّة برجوع علي بك الى مصر وقتله مستعيناً بدسائس مملوكه السابق ابي الذهب ثمَّ بتحوُّل احد ابنائه عنهُ وعودة ابي الذهب الى الشام مشتركاً مع الاتراك لمحاربته فتحوا اوَّلاً صيداء ثم حاصروا الشيخ في عكَّا فامتنع عنهم حيناً حتى أطاق عليه احد جنوده رصاصةً أودت بحياته في اواسط آب سنة ١٧٧٥

وما كاد ينجو الامير يوسف من عدوِّه الشيخ ظاهر العمر حتى وقع في ايدي عدوٍّ آخر ألدَّ واظلم منه اعني به احمد باشا الجزَّار والي صيداء وعكَّا . وكان هذا اصلهُ من بلاد البشناق يخدم كمملوك بعض امراء مصر فأتى بآثام شتى ثمَّ فرَّ هارباً والتجأ الى الامير يوسف الشهابي فأكرمهُ وأمَّنهُ لكنهُ ارتدَّ على المحسن اليه ولاذ بضروب المكر والخداع الى ان تولى على صيداء وحارب الامير يوسف وتحصَّن في بيروت

ضدهُ فاضطرَّ الامير الى ان يلتجئ الى الدولة العثمانية بواسطة الشيخ ظاهر العمر صديقها وكان الشيخ وقتئذٍ في عزّ ولايته فاصطلح مع الامير يوسف خوفاً على مدينته صيداء واستدعى الروس ليُخرجوا الجزّار من بيروت فوردت سفن عسكرية الى مرفأ بيروت وضربت المدينة بدافعها ونزل من جنودهم قوم حاصروا المدينة وخرَّبوا ابراجها ولم يزالوا يضايقونها براً وبحراً مدَّة اربعة اشهر الى ان نفد الزاد وبأنت الجماعة الاهلين الى اسوإ حال. فاضطرَّ الجزّار الى ان يطلب الامان على شرط ان يخرج من المدينة سالماً مع أتباعه. ودفع الامير يوسف ثلثمائة الف غرش الى الاميرال العسكوبي كما كان وعده

على ان احمد الجزّار عاد بدهائه وعزَّز مقامهُ واستولى بعد وفاة ظاهر العمر على صيداء وعكَّا واجترح من ضروب الجنايات ما لا يحصيه قلم فكان لا يوقنهُ ضمير ولا يعبأ بسلطان بل قرَّبتهُ الدولة العثمانية لبلوغ مآربها وقلَّدتهُ رتبة الوزارة فطغى وبغى وجيَّش الجيوش وحارب ولاة دمشق وطرابلس وامراء لبنان واستولى على سواحل الشام وغرَّم الامير يوسف مبالغَ طائلة فذاق منهُ الامرَّين

وكان الجزّار انتقل الى عكَّا فجعلها من أحصن مدن الشام ولا تزال بقاياها الى اليوم تُشعر بجرازتها وعمَّر لهُ اسطولاً لحراستها. ثم تولَّى على دمشق غير مرَّة وقلَّد ادارة الحجّ وقاتل الاعراب في فلسطين والمتاولة في جبل عامل. وهو في كل تصرُّفهِ يقترف من الفظائع ما ترتجف لهُ الفرائص فاستحقَّ بكل صواب اسم الجزّار. هذا فضلاً عن مطامعهِ الاشعبيَّة وحرصهِ على جمع الذهب بكل طرائق الحرام كالضرائب الباهظة واستيفاء اموال الناس وبحكمهِ عليهم بالعذابات المهلكة دون ان يراعي لاحد حقاً حتى انهُ نفى لتجَّار الفرنج من صيداء وبيروت

وحصلت عدَّة فتن ومشاغب خلع نير الجزّار إلَّا أنَّهُ كان بدهائهِ لا يلبث ان يخمد نارها وينتقم من اصحابها. وكان الامير يوسف عضَّد بعض هذه الثورات فلم يفلح واضحت سبب انقلابهِ وسقوطهِ سنة ١٧٨٨ وتولية الامير بشير ابن الامير قاسم المعروف ببشير الثاني او الكبير في مكانهِ. ثم امره بطاردة الامير يوسف فأخرجهُ من لبنان. وبعد مدَّة عاد الامير يوسف وطلب الامان من الجزّار فأمَّنهُ واستقدمهُ اليهِ ثمَّ غدر بهِ وبكاخيتهِ الشيخ غندور الخوري فشنقهما سنة ١٧٩٠

قضى الامير بشير في ولاية لبنان مدّة بضع سنين (١٧٨٨ــ١٧٩٢) تحت نير احمد الجزّار وقد استحقّ اسم الكبير بما قصده وسعى الى تحقيقه من تحسين احوال الجبل وبسط الامان في انحائه وتنشيط امور الاقتصاديّة إلّا انّ جشع الجزّار والحاحه على الامير بشير بجمع المال دفعاه الى وضع الضرائب الزائدة على اللبنانيين فناءت تحتها كواهلهم وعدلوا الى الثورة بينهم الامراء الشهابيون فاضطرّ الامير بشير الى ان يتخلّى عن الولاية للامير ين حيدر وقمدان ثمّ للامير حسين ابن الامير يوسف. لكنّه لم تثبت ولاية هؤلاء الامراء فعاد الجزّار وارجع الامير بشير (١٧٩٢ــ١٨٠٠) فعاملهُ كعادته كآلة تدير بآربه ولمّا بلغ السيلُ الزُبى فرّ الامير بشير الى مصر وبقي هناك سبع سنين. وقد مرّ في المشرق خبر رحلته الى قطر النيل بقلم رفيقه الشيخ سليم الدحداح (المشرق ١٨[١٩٢٠]: ١٨٧ الخ)

وفي اثناء اقامته في مصر مات الجزّار سنة ١٨٠٤ فتنفّس الناس وبقي الحكم في غيبة الامير بشير في ايدي اولاد الامير يوسف يديرُ امورهم جرجس وعبد الاحد باز ابو شاكر

هذه خلاصة احوال سياسة لبنان وبيروت في القرن الثامن عشر لدخولهما معاً في حكم الشهابيين. وقد جرت في بيروت امور اخرى دونك الاهمّ منها

ان بيروت بعد قتل الامير فخر الدين عادت الى خمولها وقلّ عدد اهلها وكسدت تجارتها. فلمّا تولى الشهابيّون حاولوا تحسين امورها. فبنى فيها الامير ملحم الخان المعروف بخان الملّاحة. وبنَت زوجة اخيه احمد المكنّاة بأم دُبوس القيسارية العتيقة والبرج المستدير بجانب السور غربي المدينة في الموضع الذي بُنيت فيه بعدئذٍ ثكنة عساكر الدولة المتحوّلة اليوم الى السراية الكبرى. وشيّد الامير منصور ابن الامير ملحم في بيروت طاقة القصر جنوبي شرقيّ كنيسة الكبوشيين الحاضرة ثمّ الديوان وميزان الحرير والقيسارية المعروفة باسمه. واقتدى به اخوتهُ الامراء علي وبشير السين وحسين فبنوا ابنية شتى منها قيسارية الصاغة للامير علي ومنها دورٌ واسعة عند الباب الجديد قرب باب يعقوب. ولما عاد الامير يوسف الى بيروت بعد حرب الروس للمدينة وخروج الجزّار بنى قيسارية الاروام التي تحوّلت بعدئذٍ الى خان بسترس. وكذلك الشيخ عبد السلام العماد عمّر قيسارية نُسبت اليه في رأس سوق العطّارين.

ومما بني ايضاً في بيروت في اواسط القرن الثامن عشر « قيسارية البارود » بناها الامير سليمان اللمعي . فكل هذه الابنية اعادت لبيروت بعض رونقها . فقصدها التجار الفرنسويون وازداد فيها عدد الوارنة وكان معظم شغلهم صناعة الحرير

وانما ورد في كتابات المرسلين الكبوشيين ان بعض القرصان الايطاليين قبضوا سنة ١٧٥٨ على سفينة لاهل بيروت فغضب لذلك المسلمون وهجموا على ديرهم الواقع جنوبي كنيسة الوارنة الكاتدرائية الحاضرة وداخل الاسوار القديمة فنهبوا الدير واتلفوا ما وجدوه فيه بعد ما اعتقلوا رهبانه . وزعم داود افندي كنعان في رسالته جواهر اليواقوت في تاريخ بيروت (الجنان ١ : ٣٧٧) : « ان الامير ماجم ارسل اعوانه فأطلقوا المتقدمين وقبضوا على المذنبين واحضرهم اليه فامر بقتل اثنين منهم واستخلص للبادرية ما كان قد نُهب في ديرهم » . وفي تلك السنة فشا الطاعون في البلاد وأصيب به كثيرون من اهل بيروت . ولما توفي الامير ماجم سنة ١٧٦١ دُفن فيها في جامع الامير منذر التنوخي

ومما كان يرغب الى الوارنة استيطان بيروت وجود قنصل دولة فرنسة الشيخ نوفل ابن حسن الخازن وهو من طائفتهم . فتولى اعمال القنصلية الى سنة وفاته ١٧٥٣ . وبقيت القنصلية فارغة الى السنة ١٧٨٦ حيث ارسل البطريرك يوسف اسطفان الى ملك فرنسة لويس السادس عشر الخوري انطون قياله ليطلب تجديدها فتُعطى للشيخ غندور سعد الخوري صالح . فاجاب الملك الى ملتمسه وتقلد الشيخ امورها من السنة ١٧٨٧ الى ١٧٩١ وفيها غدر به احمد باشا الجزار كما سبق فقتله في عكا

وفي اواسط هذا القرن الثامن عشر حدث امرٌ ذو شأن في تاريخ نصارى لبنان وبيروت ألا وهو تنصُّر الامراء الشهابيين ثمَّ اللمعيين . قيل انَّ اوَّل من دان بالنصرانية الامير عبدالله الشهابي الساكن في غزير على يد الآباء الكبوشيين فتوفي في المتن سنة ١٧١٧ . ثمَّ الامير علي ابن الامير حيدر ثاني امراء لبنان تنصَّر على يد الكاهن الماروني الخوري ميخائيل فاضل البيروتي مع زوجته سنة ١٧٥٤ لشفاء ابنتها بواسطة ادعية الكاهن المذكور الذي اقيم بعد ذلك بطريركاً على طائفته سنة ١٧٩٣ . وتبعهما ثلاثة من ابناء الامير ماجم اي الامراء سيد احمد وقاسم وحيدر . وفي السنة ١٧٦٤ ثمَّ اهتدى الامير قاسم ابن عمهم عُمر مع زوجته على يد السيد يوسف اسطفان

الفسطاوي واعتمد ابنهُ البكر الامير حسن عند مولده ثمَّ اخوهُ الامير بشير المشهور بالكبير في ٦ ك٢ ١٧٦٧ . وتبعهم بعد حين غيرهم من الامراء واتخذوا جميعهم الطقس الماروني إلَّا واحداً تبع الطقس الملكي الكاثوليكي . وكذلك الامراء اللمعيون تنصَّروا في ذاك الجيل بعد الشهابيين . وكان اوَّل من سبقهم الى العماد الامير اسماعيل من آل قايدبيه في صايدا سنة ١٧٨٨ . ثمَّ امراء قرنايل هداهم الى الايمان القس عمانويل البعبادتي من الرهبانيَّة الانطونيَّة سنة ١٧٩٠ فعمَّد الاميرَ بشير ابن الامير حسن . ثم نصر الابُ عمانويل سلام المتينيّ امراء رأس المتن(١)

ومِمَّا عزَّز ايضاً امور النصرانيَّة في بيروت في القرن الثامن عشر توالي اساقفتها الملكيين وقد مرَّ ذكر سلبستروس الدهَّان المتوفَّى سنة ١٧١٣ خلفهُ نافيطوس قدَّير كرسيَّ بيروت وفي ايَّامهِ انقسمت الطائفة الملكيَّة الى قسمين كاثوليكي واورثذكسي . وكان نافيطس مضادًّا للكاثوليك . فسقَّف البطريرك كيرلُّس طاناس على بيروت سنة ١٧٣٦ اثناسيوس دهَّان الذي رُقِّي بعد ذلك الى منصب البطريركيَّة وتسمَّى ثاودوسيوس ١٧٦١ وكان من الرهبانيَّة الحنَّاويَّة . وخلفهُ الراهب المخلصي باسيليوس جلخاف بعد اسقفيَّتهِ على صيدا . . وفي السنة ١٧٧٨ استقال عن اسقفيَّة بيروت فخلفهُ السيد اغناطيوس صرُّوف الدمشقي فثبت في كرسيِّهِ الى السنة ١٨١٢ حيث أُقيم بطريركًا باسم اغناطيوس ثمَّ قتلهُ ظلماً بعض الأئمَّة بعد ٩ اشهر من السنة (٢

اما الموارنة فاقام البطريرك يعقوب عوَّاد اسقفاً على بيروت سنة ١٧١٦ المطران عبدالله قرالي رئيس الرهبانيَّة الحلبيَّة اللبنانيَّة وكان احد الاساقفة الذين حضروا المجمع اللبناني توفي في يوم عيد الفطاس سنة ١٧٤٢ فتعيَّن بعدهُ لكرسي بيروت يوحنا اسطفان مطران اللاذقيَّة سنة ١٧٤٣ . ثمَّ سُقِّف على بيروت قبل وفاتهِ يوسف ابن اخيهِ الخوري جرجس اسطفان وهو الذي ارتقى الى الكرسي البطريركي خلفاً لطوبيَّا الخازن سنة ١٧٦٦ . ثم خلفهُ الخوري ميخائيل فاضل الاوَّل ثمَّ اثناسيوس

---

١) اطلب تفاصيل تنصُّر كل هؤلاء الامراء في مقالة الكاتبين البارعين عبدي افندي اسكندر الملوف والشيخ سليم الدحداح في المشرق (١٨ [١٩٣٠] : ٤٤٢-٤٥٢)

٢) اطلب في المشرق ٨ [١٩٠٥] : ١٩٣-٢٠٤) مقالتنا في اسقفيَّة الروم الكاثوليك في بيروت ثمَّ راجع مختصر تاريخ ازوم الملكيين الكاثوليكيين (ص ٧٢)

الشنّي الوسطاوي ثمّ المطران ميخائيل فاضل الثاني سنة ١٧٩٤ فتوفي سنة ١٨١٩. وهؤلاء الاساقفة الوارنة لم يسكنوا غالباً بيروت. وقد وُجد منهم في وقت واحد اسقفان على المدينة (١

وفي اواخر القرن الثامن عشر تعدّدت النكبات على بيروت وقد سبق أن المراكب العسكريّة ضربتها مرّتين بالمدافع في عهد الامير يوسف والجزّار. وذهب جنود الروس اهلها. ثمّ عاد الجزّار سنة ١٧٧٦ فاستولى على بيروت ورفع يد الامير يوسف عنها وضبط ما فيها من الاملاك للامراء الشهابيين وهدم دورهم ورمّم بحجارتها السور وابقى دار الامير مراد كحصن. واحرق بيوت النصارى وجعل كنائسهم اصطبلات وقطع الاشجار التي بجوانب المدينة فكل هذه النكبات مع نفي الفرنج من بيروت احتلّت على اهلها كضربة لازبة فتفرّق شملهم وتلفت صناعتهم وكسدت تجارتهم. وفي كتابات القنصل الفرنساوي هنري غويس .H) (Guys انّ بيروت اصبحت في اوائل القرن التاسع عشر سنة ١٨٠٥ كقرية لا يزيد عدد اهلها على خمسة آلاف (لهُ تابع)

قصة صالح ابن عبد القدّوس مع راهب الصين

نشرها حضرة القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي

توطئة

بين مخطوطات دير سيّدة النجاة في الشرفة للبحريان الكاثوليك (٢) مجموعة لطيفة تحت الرقم ٢٥٨ تحتوي على مقاطيع شتى دينيّة وادبيّة وتاريخيّة وقصصيّة بخطوط مختلفة عربية وكرشونيّة يرقى عهدها الى القرن السادس عشر. وممّا جاء هناك القصّة التي نسخها حضرة القس اسحق ارملة لينشرها في هذا العدد من المشرق وهي قصّة صالح ابن عبد القدّوس مع راهب الصين. وقد اثبتنا سابقاً اخبار صالح واشارة الحكيمة الجميلة (المشرق ٢٢ [١٩٢٤]: ٨١٩-٨٢٩ و٩٢٦) وصالح ابن عبد القدّوس قتلهُ المهدي كزنديق وامّا زندقتهُ كانت تقريبهُ الى النصرانيّة. وفي هذه القصّة شاهد على هذا الرأي. امّا راهب الدين المذكور هنا فلا نعرف من امرهِ شيئاً. وما

١) اطلب في المشرق ٧ [١٩٠٤]: ١٠٩١-١١٠٦) مقالة الشيخ سليم الدحداح في ابرشية الوارنة في بيروت ٢) مكتبة الشرفة غنيّة بالمخطوطات النادرة